مقابلة أدبية مع :

سيغريد هونك

بقلم فاروق بيضون

نص الحديث الخاص مع المستشرقة الالمانية الدكتورة سيغريد هونكه ، صاحبة كتاب ((شمس العرب تشرق على الغرب)) .

ـ ((لقد آن الاوان حقا ان يجلى كل غموض عن حقيقة هامة في تاريخ الحضارة الانسانية ، حقيقة ضاعت في ظلمات القرون السالفة وحجب عنها النور بشى الوسائل والطرق منعا من ان تظهر امام اعين الناس وتدخل عقولهم .

انها بالفعل قضية عدالة . وقد أصبح من الضرورة بمكان كبير ، وبعد هذا الانتظار الطويل الذي دام قرونا عديدة ، ان تأخذ العدالة مجراها .. والا ما جدوى وجودنا في قرن عشريني فاق كل القرون الاخرى بتقدمه وبعلميته .؟

وهذا التقدم وتلك العلمية بالذات تفرضان حتما الكشف عن الحقائق الضائعة تحت ارتال من التعصب الاعمى او اللاعلمية او قصر النظر او ضيق الافق ، او كلها مجتمعة ، ومهما اعترضتنا من صعوبات)).

وتوقفت محدثتي لحظة عن الكلام لتقدم لي سيجارة تناولتها شاكرا صامتا وتابعت حديثها :

ـ ((لقد قلت انها قضية عدالة . وانا اعني حرفيا ما اقول . والعدالة تقضي بارجاع الحقوق الى اصحابها ، مهما كان موقفنا منهم، وباعطاء الله ما لله والقيصر ما لقيصر ..

فالعدالة تقضي اذا وقبل كل شيء التجرد العلمي حبا في الحقيقة واظهارها . واذا نحن تجردنا عن كل عاطفة أو تعصب ، نجد ان الجهود العربية التي بذلت في بناء صرح الحضارة الانسانية ، قد وجدت كل شيء الا التقدير الحق : لقد عرفت التشويه بشتى الاساليب ، وهون من امرها واستصغر من شأنها .. بل ماذا اقول ؟ لقد ضرب حولها حصار خانق منع عنها ، ولقرون عديدة ، النور والهواء ..

وهكذا سلب من العرب حق تاريخي ، حق الاقرار بالدور الحضاري العظيم الذي لعبوه في تاريخ الحضارة الانسانية ..

ومن قام بعملية السلب ؟ اولئك الذين يدينون اكثر من غيرهم، ارادوا او لم يريدوا ، بفضل العرب على حضارتهم وثقافتهم .. واعني بهم الاوروبيين والاوروبيين بالذات ...))

كنت انصت الى محدثتي ، الباحثة الالمانية المستشرقة القديرة الدكتورة سيغريد هونكه ، وقد ارهفت سمعي واصبحت اذنا صاغية تلتقط كل حرف تقوله هذه السيدة الاجنبية عن حضارة بلادي .

اي شعور غريب لذيذ انتابني انذاك ! واية متعة ! اية انفعالات شتى .. !!

وتابعت محدثتي كلامها :

ـ ((فالحضارة الانسانية بكل صورها والوانها وحقولها ، بكل عظمتها وروعتها ، وبكل التقدم الذي نتفيأ بظلاله الفنية الان ، وبكل التطور الفكري الذي نتمتع به حاليا ..

بكلمة واحدة : هذه الحضارة هي ، وبالنسبة للاوروبيين وبكل بساطة ، حضارة اوروبية محضة .. ولا فضل لاي شعب غير اوروبي عليها . ناهيك عن العرب !!

صحيح ان هناك حضارة صينية شامخة . ولكن الصين كانت وما تزال بعيدة عن اوروبة وكأنها في كوكب اخر غير كوكبنا هذا .

كذلك الامر بالنسبة للهنود والفرس وغيرهم ..

وبالتالي ، اضحت تحقيقات البشر ـ في نظر الاوروبيين بالطبع وليس في نظر التاريخ ـ ان كانت فلسفة او علما او حضارة ... تحقيقات اوروبية ، تحقيقات قام بها ، ولخير الانسانية ، كل من الاغريق والرومان والجرمان .. فقط !

واما العرب ، فليس لهم الا النقل والا البداوة والا العداء والمخاصمة ..))

وشعرت بشيء كالغضب الصامت يأخذني ، وكأني اسمع هذه الاشياء لاول مرة ، الغضب بسبب هذا الظلم الذي احاق بنا . وشعرت ايضا بشيء من الارتياح ، اجل الارتياح ، لدى سماعي هذه الكلمات من فم باحثة اجنبية وكنت اوافقها ضمناً على كل كلمة تقولها . وخيل الي انني في محكمة التاريخ الذي أخذ ينطق بلسان هذه الباحثة الجالسة امامي .

آه ! ما أجمل الحقيقة ، خاصة اذا ما صدرت عن قاض حيادي !

وارهفت سمعي وقد اقلعت عن الكتابة لعجزي عن تسجيل ذاك الدفق من الكلمات معتمدا على ذاكرتي وملحوظاتي :

ـ ((اجل ، النقل . هذا هو الرأي الذي ساد القرون الوسطى والقرون التي تلتها والذي ما يزال سائدا حتى ايامنا هذه مع الاسف الشديد .

الباحثون ، الذين ارادوا التحرر نوعا ما من التعصب الاعمى ضد العرب ، قالوا ان فضل العرب يرجع الى انهم ((نقلوا)) فقط . نقلوا عن الاغريق الفلسفة والطب والرياضيات وبقية العلوم وقدموها بواسطة اليهود الى اوروبة ..

وحتى هذا النقل لم يجد كثيرا . ذلك ان الاوروبيين قد رجعوا في عهد نهضتهم الى الاصول الاغريقية مباشرة ، فتخطوا حسب زعمهم الترجمات العربية .

وهكذا ((غمز)) ايضا من هذا ((الدور الوحيد)) الذي اقر به للعرب بعض الباحثين في محاولة اخيرة لطمس كل فضل عربي على الحضارة الاوروبية خاصة .

واما العامة من الناس فان كلمة ((عرب)) كانت وما تزال توحي لهم بالبداوة وبالعداء وبالانحلال الخلقي فقط .

واما تحقيقات العرب في ميادين الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ هذه التحقيقات التي لم تكتف بحفظ التراث الاغريقي فحسب بل زادته وطورته فنتجت عنه فلسفة عربية محضة قائمة بذاتها ..

فلسفة حمل لواءها في عصور الظلام الحالك في اوروبا ، فلاسفة عظام من امثال ابن سينا وابن باجه وابن رشد وابن طفيل وكان لهم اكبر الاثر والفضل على الفكر الاوروبي بنفس المقدار الذي كان لاثر الاغريق على العرب .. مع فرق بسيط وهو اعتراف العرب بعظمة الفكر الاغريقي واحترامهم له وعلميتهم في حفظه ونقله ونشره .. من جهة ، ومن جهة اخرى تجاهل الاوروبيين فضل المفكرين العرب عليهم، بل ومحاولة سرقة كنوزه وتشويهها ونسبتها اليهم ..

اقول ، واما هذه التحقيقات وغيرها في ميادين الطب وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والحيل وغيرها ، هذه العلوم التي دفع بها العرب خطوات هائلة الى امام ، بل واستحدثوا بعضها اصلا ... الامر الذي جعل منهم وحتى اوائل القرن الثامن عشر،مرجعا هاما وحجة لا مناص من الرجوع اليها او الاعتماد عليها .. واما تحقيقات العرب في غير ذلك من مظاهر الحضارة الحديثة وتطويرها بشكل جعل منهم قادة في هذا المضمار ايضا ..

كل هذا قد ضرب حوله الاوروبيون حصارا خانقا . وتجاهلوه

ناسبين الى انفسهم كل فضل في محاولة يائسة لطمس الحقيقة وحجبها عن الاعين .. »

وتوقفت محدثتي عن الكلام ، لتصب لي من ابريق نحاسي شرقي جميل شيئا من القهوة المغلية في فناجين « الموكا » ـ كما يسمونها هنا في المانيا ـ . وقربت الفنجان من فمي ، فنفذت رائحة البن اللذيذة الى خياشيمي واخذت ارتشف منه ببطء متعمدا لزيادةمتعتيواطالتها... فمتى كانت القهوة العربية الاصلية تقدم في قلب اوروبة ؟ انه على اية حال امر لا يحصل كل يوم هنا ..

وكأنها رأتني كيف كنت اطيل النظر الى الابريق النحاسيوالفناجين الستة الملتفة حوله فوق طاولة نحاسية مدقوقة ، فقالت لي :

ـ « كل هذا الذي تراه امامك : الابريق والفناجين والطنافس الجلدية والبساط وغير ذلك ، قد اشتريته من المغرب وهو بحق ثروتي الغالية التي تثير في نفسي اجمل الذكريات ؟

وفي هذا الوقت دخل قاعة الاستقبال حيث كنا ، شاب ممشوق القامة اشقر الشعر ، وفوجيء بوجودي ، فاراد الاعتذار والرجوع،ولكن نادته الدكتورة قائلة لي :

ـ « اريد ان اعرفك على ابني الكبير . لقد ولد في مراكش حيث عشت هناك انا وزوجي مدة سنتين .

وضحك الشاب وقال معلقا :

ـ « اجل في طنجة وانا اعتبر نفسي عربيا من المغرب ! »

فقلت :

« ولكنك اشقر الشعر وانت اشبه بسكان الشمال الفياكنغ من العرب المغاربة ! »

فاجاب :

ـ « الظواهر غير مهمة ، وانما المهم هو القلب » . واشار الىموضع قلبه .. وضحكنا ثلاثتنا . ثم استاذنا مني وخرج مع والدته من القاعة، واصبحت وحيدا وسط قاعة شرقية عربية في قلب بيت اوروبي في بون : وسط تذكارات عربية من مختلف الاقطار العربية ومن الصحراء، وسط كتب ومجلدات صفت في كل النواحي وقرأت اسماء « المعلقات » و « ديوان المتنبي » و « الشعر الاندلسي » و « تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان » و « الديوان الشرقي الغربي لغوته » و « الثورة العربية » و ... و ...

وعدت الى مقعدي الوثير ، الى قهوتي العربية . ونسيت تعبي ومشاق الرحلة التي قطعتها من برلين الى بون وهي مسافة تبلغ ستمائة كيلومتر ، وذلك لمقابلة مؤلفة كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » ولاجراء هذا الحديث معها ..

فكتابها هذا كتاب غير عادي حقا . انه وثيقة تاريخية خطيرة كشفت النقاب عن تراث الغرب العربي بموضوعية وتجرد وشمولية وجرأة تستحق كل ثناء وتقدير .

ورجعت الى ذاكرتي تعليقات المعلقين من ثناء او نقد ، من تحييذ او هجوم ، تعليقات تقر جميعها بخطورة الكتاب واهميته ، الامر الذي جعل من صدوره حدثا هاما في الاوساط الفكرية ، ليس في المانيا فحسب بل في اوروبة كلها .

ثم ما لبثت ان عادت الدكتورة هونكه معتذرة عن تغيبها للحظات وعادت الى جلستها امامي . وقلت :

ـ « سيدتي ، اني لن اطلب منك ان تذكري لي بشيء من التفصيل اثر العرب على الحضارة الغربية . ذلك ان هذا يشكل موضوع كتابك الذي وفى هذا الموضوع حقه فعلا واظهر للجميع ولنا ايضا نحنالعرب، ما غمض على الاعين وما حسبناه غريبا عنا ..

ولكني احب ان اعلم شيئا عن الافكار الرائدة التي دفعتك الى الخوض في مثل هذا الموضوع الشائك .. واظنك توافقيني على كلمة « الشائك » كما ذكرت ؟ »

واجابت الدكتورة هونكه :

ـ « حقا ، الكلمة في مكانها ، وهذا ما برهنته الايام بعد صدور الكتاب . ولكن دعنا من هذا .

الافكار التي دفعتني الى الكتابة عن هذا الموضوع هي عديدة ومختلفة ، ولعل بامكاني تلخيصها بالشكل التالي :

اولا ـ اثناء دراستي الجامعية وخلال تحضيري لاطروحتي ،تتبعت عن كثب تاريخ الشعر العربي القديم وتأثيراته القوية على الشعر في اوروبة عامة والشعر الغنائي Mnnesang او Chansons de Troubadour

فيها ، هذه التأثيرات التي انعكست في انتاج شعراء القرون الوسطى بل وفي شعر غوته ايضا وفي ديوانه « الشرقي الغربي » . ولعل ابن حزم وابن زيدون من الذين اثروا اكثر من غيرهما على شعرنا الغنائي والغزلي .. ومثلا فان ديوان « طوق الحمامة » قد نقل الى عدة لغات اوروبية وحظي وما زال يحظى بكل تقدير واعجاب .

ثانيا ـ انطلاقا من دراستي لشعر الغزل لدى العرب وخاصة الاندلسيين منهم ، وقفت وقفة طويلة على العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة في عصور النهضة بالطبع . فوجدت فرقا شاسعا بين مكانةالمرأة العربية في مجتمعها وبين مكانة اختها الغربية في مجتمعها انذاك .

ففي الوقت الذي كانت فيه المرأة العربية تتمتع باحترام الرجل لها وتعبده لها واقراره بحقوقها ، كانت المرأة في الغرب عنوانا للخطيئة، كما بشرت بذلك الكنيسة الكاثوليكية ، وبالتالي كان عليها ان تعيش في ارهاب دائم من الرجل ، واصبحت في نظرهما ، جسدا يغوي لا غير ..

وهذه الناحية بالذات كانت موضوع كتابي السابق « الرجل والمرأة » متطرقة فيه الى الدور الذي حققه الاسلام في هذا المضمار ..

ثالثا ـ كل هذه الامور جعلتني اركز اهتمامي على الثقافة العربية والادب العربي وكل مظاهر حضارتكم .. وعبثا بحثت عن كتاب جامع شامل يوضح هذه الاشياء ويبرز تلك الحقائق التاريخية التي لمستها اثناء دراستي فلم اجد وانما لمست التعمد في اخفائها وطمسها عبر القرون من قبل الكنيسة الكاثوليكية وغيرها من الجهات الغربية التي كانت تعمل بوحي من تعصبها الاعمى ..

اقول كل هذه الامور واقامتي في المغرب مع زوجي وزيارتيالمتعددة الاقطار العربية بغية الدراسة والاستطلاع .. دفعتني الى وضع كتابي الاخير عن هذا الموضوع بالذات واملي ان اكون قد المممت الماما كافيا به».

وقلت لها :

ـ « حقا . حقا . سيدتي ، لقد قلت ن الاوروبيين يتجاهلون الجهد العربي في بناء صرح الحضارة الانسانية كما ذكرت سابقا . لماذا؟ وما هي الاسباب حسب رأيك ؟ »

واجابت الدكتورة هونكه بنفس الشجاعة التي ردت فيها على الناقدين وبنفس الجرأة التي كتبت بها كتابها :

ـ « اجل ، ولعل في هذا التجاهل احد الاسباب التي دفعتني الى وضع كتابي هذا . واما الجواب فهو يحتاج الى شيء من التفصيل.

واريد ان اذكر لك هنا حقيقة ربما تكون تجهلها :

ان اطلعت يوما ما على كتب التاريخ التي يتداولها تلامذة المدارس في اوروبة لوجدت ان ذكر العرب ، كشعب وحضارة وثقافة ، يرد باختصار في مرات ثلاث معدودات ، تحصر العلاقة بين اوروبة والعرب بالشكل التالي :

اولا ـ الخطر الذي كان يشكله العرب في اسبانية على اوروبة ووصول الجحافل العربية الى قلب فرنسا وموقعة « بواتيه » بقيادة شارل مارتل الذي اصبح قديسا او كالقديس « لانقاذه اوروبة من خطر البربر ! » .

ثانيا ـ الحروب الصليبية التي كانت تهدف الى احتلال البلاد العربية وليس الى حماية الارض المقدسة . ومقاومة العرب لهم وقذفهم لفلول الصليبيين في اخر الامر ، الى البحر .

ثالثا ـ خطر العثمانيين الذين وصلوا الى ابواب فينا ، عاصمة اوروبة انذاك . والاوروبيون لا يفرقون ـ عمدا ـ بين العرب

والعثمانيين .. فكلاهما شكل خطرا على اوروبة وهذا يكفي ..

اذا علاقة العرب باوروبة كما تصورها كتب التاريخ هنا التي يتداولها تلامذة المدارس هي علاقة عداء وحروب فقط ، وبالتالي فان العرب اعداء لاوروبة ليس الا ..

اضف الى ذلك موقف الكنيسة الكاثوليكية امام الفلاسفة المسلمين ومحاولتها في القضاء على نفوذهم وتاثيرهم في اوروبة ، وما تبع ذلك من حملات تعصبية عمياء ..

اضف الى ذلك الترسبات المتراكمة في عقول الاوروبيين ، والناتجة عن صراع قديم وعن خرافات خرقاء لا أساس لها من الصحة ..

اضف الى ذلك اثر الدعاية السيئة ضد العرب ، واثر التصورات الغريبة عن الشرق العربي بلياليه وحريمه واساطيره .. والجهل لدى الاوروبيين ..

اضف كل هذا تجد الجواب على سؤالك . »

ـ « لقد اتهمت من البعض بالتحيز للعرب . فماذا تقولين ؟ »

ـ « هذا غير صحيح ! اني لم اتحيز للعرب ولم اتحيز ضد احد.. وانا لا انكر حبي وتقديري للعرب ولحضارتهم .. ولكن اسأل من يكتب عن اليونانية اليس هو ايضا متحمسا لها ؟ وهذا امر طبيعي جدا .. وما ضره طالما انني حافظت على الموضوعية كل المحافظة ؟

ـ « ووصفت بالشجاعة ، فما هو تعليقك ؟ »

وابتسمت الدكتورة هونكه ولم ترد بشيء .

وهنا رجوتها ان تحدثنا قليلا عن الكتاب ، وعن عملية وضعها له ، فقالت وكأنها تسترجع ذكريات عزيزة على قلبها :

ـ « لقد استغرق وضع الكتاب مدة اربع سنوات من العمل المتواصل . وقبل ان اعمد الى الكتابة عمدت الى القيام بعمل تحضيري ودراسة مسبقة في كل فروع العلم التي تناولتها في كتابي .. فذهبت الى الجامعات وحضرت شتى المحاضرات في مختلف الكليات لتي اكتسب تجربة بالعلم ذاته وبتعابيره الفنية وبأهم وسائله .. ثم عمدت الى البحث عن الاصول العربية المنتشرة في مكتبات اوروبة .. وكان زوجي، وهو يجيد العربية وقد تعلمها في الصحراء الاردنية حيث بقي فيها مدة اربع سنوات من ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ ، يساعدني في الترجمة من العربية الى الالمانية ..

ولقد اعترضتني صعوبات جمة لدى بحثي عن الاصول لمقارنتها بالترجمات اللاتينية واضطررت بعض الاحيان الى ذكر بعض مقاطع من الشعر العربي دون تمكني من معرفة صاحبه . فمعذرة من القراء العرب . ولكني ، وبعد النجاح الذي لاقاه الكتاب الامر الذي دفع بالناشر الى اعادة طبعه مرة ثانية في خلال عام واحد ، فاني لا اكاد اذكر ذاك العذاب المضني والعمل المتواصل ..

ثم توقفت لحظة لتقول :

ـ « اني سعيدة جدا وفخورة لقيامي بمثل هذا الواجب تجاه التاريخ وتجاه شعبكم العظيم الذي عاد الى صعود السلم من جديد.. »

وسألتها عن مشاريعها في المستقبل ، فاخبرتني بانها كلفت من قبل الهيئة المشرفة على اصدار الموسوعة العلمية A--Z لدى احدى دور النشر الكبرى في المانيا ، بوضع بحث شامل عن تاريخ الادب العربي وتأثيره على الادب الغربي ..

ثم تحدثنا معا عن رحلاتها الى الاقطار العربية ووصفت لي بكثير من الامتنان والود الحفاوة التي لقيتها في الوطن العربي .. وحدثتني عن زوجها واولادها وحياتها الخاصة وذكرياتها في مراكش ..

وكان حديثها هذا ينبض بالود الكبير وبالحب العظيم وبالتقدير البالغ للشعب العربي ، لادبه ، لحضارته ، لبلاده الكريمة المعطاءة ، لاخلاقه ولكفاحه القديم الجديد من اجل الحصول على مكان خليق به تحت الشمس !

برلين — فاروق بيضون

ليلة ميلاد

الى الصديق : سعيد الجداوي

***

بأرض الشارع المهجور ما زالت بقايا مخلب الصمت
تحفره ، فتندفق الوجوه وتوحش الاحياء
وحط الليل يرتضع القرى المخنوقة الصوت
ويطرح صدره العريان يحضن طيرها وثمارها الخضراء
فاحلم انني بمدينة عذراء
يطير الصيف فوق سمائها شعرا وموسيقى
وينفض ذيله فيساقط الاثمار والاقمار والاضياء
وأحلم انني ابحرت عبر مدائن الموت
وعدت بقبضة من طميها المحرور بالنبت
اراقص كل ظل عابر ، واهز كل يد ، واهتف :
آ .. مساء الخير .
وكان الشارع المهجور يزفر في ضباب الليل رؤياه
وبعض حصاده اليومي من ضحك ومن اعياء
وعبر الصمت ، من بوابة الاشجار ،
تغمغم ، تشرئب عرائس الحنطة
تغني شعرها المسحور بنت الماء
وترقص ، يشرئب الشارع المهجور
يرضع صوتها الغوار
واحلم انها جاءت بكل رفاقنا الارض ،
أهتف : آ .. مساء الخير
سأخلع معطف الاحزان في الساحة
وأبدأ رقصتي الاولى ..

القاهرة — محمد عفيفي مطر